مجلة العلوم القانونية و الاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

الاحتفالات والمناسبات الدينية عند أتباع الطريقة الشيخية بالجنوب الجزائري- مدينة متليلي أنموذجا-

دراسة "للموالد والمواكب من منظور الأنثروبولوجيا الدينية"

Religious celebrations and events for the followers of the Sheikhi order in southern Algeria - the city of Metlily as a model– Study "Births and Processions from the Perspective of Religious Anthropology"

سيف الدين هيبة *

جامعة غرداية،(الجزائر) seife507@gmail.com

تاريخ ارسال المقال:2021/02/30	تاريخ القبول:2021/03/02	تاريخ النشر: 2021/03/15

* المؤلف المرسل

الملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية أن تسلط الضوء على ظاهرة اجتماعية تتميز بها الطرق الصوفية سيما في الجنوب الجزائري، وهي ظاهرة إحياء المناسبات الدينية عموما، ومنها الموالد (ذكرى مولد أو وفاة الصالحين والأولياء)، حيث تقام هذه التظاهرات بصفة دورية سنويا، بما يسمى "الوَعْدَاتُ"، كما أن هناك مناسبات خاصة بكلّ طريقة صوفية، ومنها الطريقة الشيخية محلّ الدراسة، والتي تنفرد ببعض المناسبات والميزات الخاصة، وهو ما تناولته هذه الورقة البحثية، بالإضافة إلى الإشارة إلى حدث آخر مهم عند المتصوفة وهو ظاهرة "المواكب"، والتي يتم فيها الانتقال والسفر من أجل حضور فعاليات "الوَعْدَة" الخاصة بالصالحين المشهورين في أيّ منطقة.

الكلمات المفتاحية: الوعدة؛الموكب؛المولد؛الطريقة الشيخية.

Abstract:

This research paper tries to shed light on a social phenomenon that characterizes the Sufi orders, especially in southern Algeria, which is the phenomenon of reviving religious events in general, including the Moulids (the anniversary of the birth or death of the righteous and saints), where these events are held periodically annually, in what is called "promises." And, there are special occasions for every Sufi order, including the Shaykh order under study, which is unique to some special occasions and features, and this is what this research paper dealt with, in addition to referring to another important event for the Sufis, which is the phenomenon of "processions", in which transportation and travel takes place. In order to attend "promise" events of famous good people in any region.

Keywords: promise; Procession; Born; The sheikh method.

تمهيد:

لا شك أن الممارسة الصوفية تعد من أهم العوامل التي ساعدت على بقاء التصوف واستمراريته. فالدّين يبعث القوى في الإنسان و ينظم سلوكه عن طريق الممارسات و الأفعال التي يكررها على الدوام والتي هي بدورها بمثابة الحافظ لهذا الدّين من الاختفاء و الزوال. وعلى ذلك فالممارسات تقوي باطن المتدين أو المتصوف و ظاهر سلوكه و تجعل الفكرة الدينية حقيقة قابلة للنمو و للتأثر و التأثير في البيئة التي يعيش فيها. وهي إذ تنبع من الاعتقاد الديني فهي أيضا مؤثرة فيه و متأثرة به من الناحية الأخرى.

وقد اهتم المتصوفة بصفة خاصة بالممارساتأو الشعائر لما لها من أهمية في ترقي المريد والوصول به لأسمى مقامات النفس، و الشعائر هي التعبير الرمزي عن المشاعر والاتجاهات والقيموالمعتقدات عن طريق أفعال وممارسات منظمة تعمل على تقوية المعتقد نفسه، كما تمد المشتركين فيها ببعض أساليب ووسائل الضبط حيث أنها تحدد طبيعة علاقاتهم بالآخرين وبالعالم المحيط بهم.بل وتحدد أيضا علاقاتهم بالقوى الطبيعية أو ما فوق الطبيعية.

ولما كان الأجدر عند دراسة الشعائر كما ذكر "أحمد أبو زيد" الأخذ في الاعتبار وجهة نظر الناس أنفسهم عن الشعائر التي يمارسونها و معناها الاجتماعي عندهم لا أن نكتفي بتقديم تفسيراتنا عن تلك الشعائر مثلما فعل علماء القرن التاسع عشر، إلا أن هذا لا يعني أن يقف الباحث موقفا سلبيا من تلك الشعائر أو أن يكتفي بمجرد تسجيل ما يلاحظ في تلك المجتمعات، و لكن أن نهتم في المحل الأول بالتفسيرات و التعليمات التي يقدمها أفراد المجتمع لسلوكهم الشعائري على العموم بغرض فهم معناها عندهم قبل تقديم تفسيراتنا التي تتأثر بغير شك بمفهوماتنا و تصوراتنا المستمدة من واقع الحياة الشعائرية التي توجد في المجتمع الذي نعيش فيه[1].

1- الاحتفالات والمناسبات الدينية العامة والخاصة بالزاوية ذات الطريقة الشيخية بمتليلي:

تهتم الطرق الصوفية بالاحتفال بالمناسبات الدينية و أهمها ذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل البيت و تشارك الدولة و الهيئات الرسمية في الاحتفال ببعض المناسبات العامة كمولد الرسول صلى الله عليه و سلم و ليلة القدر و ليلة الإسراء و المعراج و رأس السنة الهجرية، كما تحتفل كل طريقة صوفية بذكرى مولد مؤسسها أو وفاته.

و الهدف من إقامة الاحتفالات هو دوام تذكير الناس بهذه المناسبات حتى تستمر حية في نفوسهم وحياتهم ويحيونها بالذكر و العبادة و الصدقات على اختلاف أنواعها، و ما من شك في أن الناس في حاجة إلى وجود هزات قوية بصورة مستمرة تلفت أنظارهم إلى المواسم الدينية و تذكرهم بها، فالاحتفال بذكرى مولد أولياء الله الصالحين أو وفاتهم إحياء للمناسبات و المواسم الدينية.

و الأصل في إقامة الموالد هو الاعتبار بسيرة صاحب المولد و الانتفاع بذكراه، فضلا عن انتهاز فرصة التجمع للتعارف و التعاون على البر و التقوى و الانصراف إلى الله تعالى بذكره، و التعبد له، و الاستماع إلى القرآن الكريم والانتفاع بوعظ العلماء و الفقهاء و الصالحين، و ذلك إلى جانب إخراج الصدقات بالإضافة إلى الفائدة المعنوية و الخير الذي يعم على المشاركين في هذا المولد.

و يثار جدال حول مشروعية الاحتفال بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه و سلم و أولياء الله الصالحين،والظاهر أن هذا يعدّ من السنّة حيث كان الرسول صلى الله عليه و سلم يحتفل بذكرى ميلاده وصيام ذلك اليوم واحتفل بذكرى نجاة سيدنا موسى و من آمن معه بصيام يوم عاشوراء، فمبدأ الاحتفال بذكرى الصالحين مشروع و يمكن إدخال سائر الطاعات قياسا على احتفال الرسول صلى الله عليه و سلم بالصيام.

و قد أمرنا الله أن نشكره على ما حبانا به من النّعم، و أعظم نعمة على خلقه بعث الرسول صلى الله عليه و سلم، لذلك يرى مجتمع الدراسة أن ذكرى مولد الحبيب المبعوث بالهدى رحمة للعالمين من أعظم المناسبات التي يحتفى بها، فهي تضفي السّكينة على القلوب بتذكر سيرته العطرة مما يبعث على النهوض الروحي،ومن ثمّ كان الاحتفال بمولده صلى الله عليه و سلم و مولد أولياء الله الصالحين تذكير جماعي و قدوة جماهيرية وهو نوع من الشكر الجماعي لله تعالى – ذو الطابع الإسلامي– الذي لا يتعدى تدارس الولي بتجربته الصوفية الذاتية وجهاده في الطريق مع إحياء هذا اليوم بإقامة حضرة ذكر.

إلاّ أن غالبية من تناولهم البحث –في هذه الدراسة الميدانية –يرون صعوبة المشاركة الفعلية في الاحتفال بالمولد في هذه الأوقات مما يجعلهم يتجنبون الذهاب لمكان الاحتفال ابتعادا عن الزحام والمشقة والتكلفة والسرقة وغيرها من المثالب التي لصقت بالموالد، ولكن هذا لا يمنعهم من الاحتفال بهذه المناسبة في زواياهم الخاصة أو ديارهم –كما هو سائد عند بعضهم – في مدينة متليلي – و ما جاورها من الضواحي و المناطق لما لهذه المناسبات من أهمية لهم في تنشئتهم في الطريق الصوفي. و هذه الاحتفالات بصفة عامة لا زالت تمثل مهرجانات شعبية و منابر للكلمة الطيبة و المواعظ الحسنة و مواسم للخير و البر وفيها منافع للناس، فهي تجمعات تشكل مؤتمرات للتدارس في شؤون المسلمين محليا و عالميا، و ساحات للذكر والعبادة، وربما حتى تتكون فيها شبه أسواق تجارية تعمل على تنشيط الحركة الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية والترويحية، وتشارك الدولة والهيئات الرسمية (مشيخة الطرق الصوفية) بالاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم بالذكر و المدائح النبوية والتحدث عن سيرته العطرة عن طريق الدروس في المساجد و الزوايا والمدارس وغيرها.

والموالد فرصة طيبة لإحياء الذكريات العطرة التي تبعث القدوة في النفوس، و محاولات مجدية للتعرف على الشخصيات الكريمة في الإسلام، و إحياء هذه الذكريات المباركة سنة إنسانية من أصول طبائع الأموضرورة من ضرورات المجتمع للتنفيس و الترويح، و مناسبة ناجحة من مناسبات الانتعاش الثقافي و العلمي والنفسي والروحي والاجتماعي والتجاري و غيرها.

فالموالد مناسبات اجتماعية يلتقي الناس فيها على حب وود للاحتفال بذكرى الولي الصالح مما يحقق صورة من صور الوحدة و اجتماع القلوب التي أراد الإسلام أن يقيمها بما فرضه من شعائر كصلاة الجماعةوصلاة الجمعة و الحج. و في هذه المناسبات يتحقق الترابط و التماسك و تتسع شبكة العلاقات الاجتماعية، كما أنها تحافظ على المعتقدات الشعبية و العادات و التقاليد و التراث الأدبي و الشعبي[2].

ومن العادات المتوارثة في الموالد قيام الصوفية بتقديم ألوان من الطعام و الشراب للفقراء و المحتاجينوالزائرين و يتحملون ما يتكلفه ذلك من نفقات كبيرة باعتبار أن هذه المناسبات من أهدافها الألفةوالمحبة والمودة والخير و البر و التعاون و التماسك و الترابط و التكافل الاجتماعي.

والمولد كما ذكر "محمد الجوهري" أيضا يمثل مناسبة هامة لتجديد العلاقة وتدعيمها بين الطرق الصوفية و أتباعها من خلال الولي الذي يحتفى بمولده (أو ذكرى وفاته)، ففي هذه المناسبة تجتهد الطريقة في جمع أفراده من المدن و القرى مع تنظيم انتقالهم إلى مقر المولد (أو الزاوية)، وتدبير شؤون معيشتهم من مبيت و إيواء، وتعطي النفقات من الاشتراكات و الإعانات و الهبات (الزيارات كما يسمونها) التي تتلقاها الطريقة من أتباعها و المريدين و من أعضائها، و تستغل فرصة المولد لجذب أفراد جدد (للذي طلب الانضمام إلى الطريقة)باعتبار أن مقر ضريح الولي مكان مفضل لإعطاء العهد الديني للمريدين وتجديد العهد على يد الشيخ الحالي للطريقة، كما تغتنم الطريقة هذه المناسبة في إبرام و تدعيم علاقات المصاهرة بين أعضائها مما يقر ارتباطهم بالأواصر الأسرية[3].والموالد لها دور هام في تغذية الشعور بالترابط بين الشيخ والمريدين مما يساعد على حيوية الطريقة و تجديد قوتها، ومن ثم تكمن الوظيفة الأساسية للموالد في نقل الاعتقاد إلى الأفراد الذين لم يروا الولي أو الشيخ المؤسس للطريقة من خلال ربما توزيع صوره (إن أمكن)وتذكيرهم بتعاليمه وترديدها علاوة على الاقتراب من الشيخ الحالي و الارتباط به، كما أن المولد فرصة لطرح أعضاء الطريقة للمشكلات الشخصية التي تعترضهم سواء كانت خلافا بين زوج وزوجته أو رجل وصديقه أو امرأة و جارتها أو بين الأقارب و بعضهم أو بين إخوان الطريق و بعضهم و ما إلى ذلك من الخلافات؛وبذلك تدخل هذه اللقاءات ضمن وسائل الضبط الأسري و الاجتماعي الذي يتحكم في توجيه حياة هؤلاء الأفراد.

ولا يصح التحدث عن الاحتفالات و الموالد دون الإشارة إلى المواكب (الركب) التي يؤمها أبناء الطوائف المختلفة و زوار المولد لكونها ظاهرة دينية اجتماعية تتشكل من جماعات تطوف بعض الجهات أوالأحياء لشكر الله على ما أعطى هذه الجماعات من هداية و طاعة. و المواكب دعوة هدفها إيقاظ القلوب الغافلة عن حب الله و الترغيب في الانتماء للجماعات الصوفية المختلفة[4].

لذلك فالمواكب كانت أكثر شيوعا بين أهل الطرق الصوفية في القرنين أو الثلاثة الماضية عنه الآن، حيث بدأت تشوب هذه المواكب و المهرجانات عادات و تقاليد غريبة عن الإسلام و التصوف مما جعل مشيخة الطرق الصوفية يحدّون من المواكب و ما يسودها من الطبل و الزمر غير المنظمين مما يحيد بالاحتفال عن هدفه الأساسي إذ يتحول الموكب إلى نمط من الضوضاء و التهريج و الترويح مع اختفاء الهدف الديني تماما.

وترى جماعات من الصوفية أن المواكب امتداد للسنة النبوية و إحياء لها عندما دخل الرسول صلى الله عليه و سلم مكة فاتحا، و قد تكاثر أهلها فدخلت الجماعات و هي تكبّر و تذكر اسم الله تعالى. فالمواكب لفت لأنظار الناس و هي عبارة عن رمز يشير إلى قوة الدين و رفع لوائه بين الناس و تذكيرهم بتاريخ الإسلام المجيد.

ولكن يرى المتصوفة الآن ممن تناولناهم بالدراسة أنه بعد التقدم العلمي و التكنولوجي فإنهم يرون عدم الحاجة إلى مثل هذه الوسائل البدائية للتوعية و الإرشاد، بل من الأفضل الابتعاد عن هذه الوسائل التي تسبب كثيرا من الاعتراضات على التصوف و المتصوفة و هذا ما تنادي به مشيخة الطرق الصوفية.

ويرى أفراد الطريقة الشيخية أن الاحتفال بالموالد بالمشاركة بالطبل و الزمر ليس من التصوف في شيء وأولئك الذين يشاركون فيه ليسوا بصوفية بل دخلاء عليه لا ينتمون حقا للطريق بل يقتصر هدفهم على مجرد الاحتفال الظاهري بهذا المولد الذي يضفي عليهم البهجة و السعادة و الوقوف عند هذا الحد. أما المؤمنون بالتصوف والطريقة و الوصول إلى المقامات العليا للنفس و الروح فيمثل هذا اليوم لديهم جزءا من تنشئتهم في الطريق الصوفي لأهمية التعرّف على التجربة الصوفية الذاتية مع نيل مدد هذا الولي أو سره العظيم الذي لا شك في دوره الكبير في تحقيق الرابطة الروحية بين المريد و أولياء الله الصالحين.

فالأساس في العلاقة حب الولي و تعلق القلب به و دوام زيارته و التعرف على سيرته و تجربته مع ربه عز وجل بالاهتمام بأداء الشعيرة سواء بالمشاركة الفعلية في المولد أو غير ذلك (فالشعائر التي تصحب الاعتقاد في الأولياء تتمثل في زيارة أضرحتهم و الآداب الخاصة بهذه الزيارات، و هي الاستعداد الروحي الذي هو الإيمان والاعتقاد في قدرة الولي وفي كونه ملهم و بصيرته تخترق الحجب و الاستعداد المادي بالاغتسال والوضوء) .

وتشمل الزيارة تحية الولي عند دخول مكان الضريح الذي يفضل فيه الدعاء لاعتقاد الزائر في استجابة الله لدعائه في هذا المكان المقدس و هذه الزيارة تعتبر بمثابة الحج الأصغر. و رأوا أن السبب وراء زيارة أولياء الله الصالحين و التبرك بهم يرجع إلى أن أولياء الله الصالحين هم صفوة عباد الله، تولاهم سبحانه و تعالى بعنايته وأكرمهم بنور الإيمان و حفظوا عهد الله فحفظ عهدهم و تولى هدايتهم و نصرهم و تولوا القيام بحق عبوديته والدعوة إليه، فكأن الأمر إكراما لتفوق الصفوة، و التماسا لبركتهم التي تساعد على أن يصبح الفرد نفسه من الصفوة. وتوضح الآية الكريمة مواصفات أولياء الله بقوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون الذين آمنوا و كانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم »[5].

فالولي هو من آمن بالله و رسوله و اتقى و عمل صالحا و اهتدى بنور الحق و استقام و داوم على الذكر وكل هذا يمثل وصفا للصوفي الحق و لكل صالح تقي من عباد الله – و قسّم ابن عطاء الله السكندري الولاية إلى ولايتين : –ولي يتولى الله و ولي يتولاه الله – وأطلق أبو الحسن على هذين النوعين الولاية الصغروهي ولاية المحبين و طريق السالكين و الولاية الكبرى و هي ولاية المحبوبين (المجذوبين)[6].

فمن الوسائل في تنشئة المريدين التقرّب من أولياء الله و التبرّك بهم و التأسي بتجاربهم الذاتية كأساس في الطريق الصوفي مع التعرّف على بعض الكرامات التي تحدث لهم في الطريق و التي هي بمثابة ثمار طاعتهم وجهادهم.

والطريق الصوفي –كما سبق و ذكرنا– يقوم أساسا على التأثير الروحي أو بتعبير أدق " البركة " وهو لا يتأتى إلا بواسطة شيخ و من هنا كانت أهمية السلسلة المنبعثة من شيخ لآخر، و أصل السلسلة أنها من الرسول

صلى الله عليه و سلم إلى الصحابة إلى التابعين و تابعي التابعين إلى الشيخ الحالي في الحياة، و من هذا المنطلق تهتم الطرق ببركة الأولياء المؤسسين لها. وحقيقة الاعتقاد في الأولياء –كما تبيّن لنا – ليس هو الاعتقاد في ذات الولي بل الاعتقاد في البركة التي تمثل الشيء المعنوي الذي وضعه الله عز وجل في الولي والتي هي مرتبطة بروحه و ليست بجسده. و تتمثل آداب الزيارة كما لاحظنا في الميدان في تحية الولي بقول "السلام عليكم " والذين يعرفون الدعاء السنّي يقرؤونه بقولهم " السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم السابقون ونحن اللاحقون، اللهم أجمعنا و إياهم في دار النعيم " ثم الدعاء للولي وقراءة الفاتحة للزائر ولأقاربه وإخوانه وهكذا، ثم صلاة ركعتين تحية المسجد– إذا كان المسجد بقرب الضريح– ثم قراءة بعض السور المتعارف عليها مثل " يس " و " الواقعة " و " الملك " و " المعوّذتين " و " الإخلاص "و " الفاتحة " وخواتيم البقرة، و آية الكرسي، و غيرها تبعا للوقت المتاح للزائر ثم الانصراف.

وكما ذكر بعض المريدين أنه يجب الاعتقاد عند تحية الولي أنه يرد السلام بالفعل، فالروح حية دائما لا تموت. أما تفضيل الدعاء في هذا المكان فترجع لكونه بيت من بيوت الله ذا قدسية خاصة بسر الولي وهي التي وراء التبّرك به.

كما ذكر فاروق أحمد مصطفى عند تحليله لزيارة الأضرحة و بعض الأماكن المقدسة و القيام بالشعائر الخاصة بها أن التقديس أو البركة من الأفكار الهامة التي يعلقها الإنسان ببعض الأشخاص والأمكنة والأفعال والتصرفات و الأشياء المادية مثل الأولياء من الأشخاص المقدّسين، و المساجد و أماكن الحج، ومقامات الأولياء، و مقصوراتهم كلها " أماكن مقدسة " و هذا يدل على الاعتقاد في وجود مجال أو منطقة مقدسة يلجأ إليها الإنسان لحل مشاكله و قضاء الحاجات الضرورية، و رفع الكوارث و المحن التي قد يصاب بها، كما أنه وجد تسليما مطلقا بأهمية الأولياء و بركاتهم و قدراتهم الخفية على القيام بأعمال كثيرة، و تحقيق كثير من الرغبات المكبوتة، و توفير الحماية للذين يلجؤون إليهم في أوقات الشدة[7].و كل هذا قد أتضح في الطريقة الشيخية في مدينة متليلي و في غيرها من المدن و القرى التي تنتشر بها مثل مدينة الأبيض سيدي الشيخ " منبع الطريقة "، و هو ما لاحظناه أيضا أثناء زيارتنا لها في المواسم الدينية و المواكب.

وتظهر في زيارة الولي كثير من الرموز الشعائرية مثل القرب من مقصورة الولي و الإمساك بها وتقبيلها وهذه الرموز تعبّر عن مدى حبهم للولي، و إن كانت هذه الأفعال تقابل من جانب قلة من المشتركين في الموالد بشيء من الاستنكار إلا أن الغالبية يرون أن لمقصورة ترمز إلى من دفن فيها، و القبلة ترمز إلى فرط المحبة التي يكنّها الأتباع و المريدون لوليهم[8].و ليس من اتفاق في هذا الباب حتى في الطريقة الواحدة فالاختلاف موجود بين أفراد الشيخية أنفسهم.

ورأى كثير من مريدي و مشايخ مجتمع الدراسة أن الأفضل " ترك الاعتراض" فيما يفعله الزائرون عند زيارة الولي خاصة إذا كان فعل الزائر خاص به و بحاله دون التأثير على غيره من الموجودين.

والملاحظ أن الزاوية الشيخية لها وظائف ثقافية تقوم بها، و هي مزيجا بين الثقافة و الدّين حيث أن معظم المناسبات و المواسم الدينية، لها طريقة خاصة للاحتفال بها. لتكوّن في الأخير إحدى الوظائف الثقافية التي تقوم

بها، فأعضاؤها من الشيخ، المقدم، الطلبة، المريدين، يحيون الاحتفالات الخاصة بالزاوية وكذا الاحتفالات الدينية العامة.

أ – الاحتفالات الدينية العامة: الزاوية الشيخية كبقية الزوايا تقوم بالاحتفالات الدينية، لكن بطريقتها الخاصة في ذلك :

فإذا أخذنا مناسبة " المولد النبوي الشريف " فقد لاحظنا أن له صبغة خاصة في الزاوية، حيث أنها تحي هذه المناسبة بتلاوة القرآن الكريم و الذكر، و يقوم الطلبة بقراءة القصائد :"مثل تخميس القصائد الوترية الهمزية، قصيدة البردة في مدح النبي – صلى الله عليه و سلم – إضافة إلى بعض القصائد والمنظومات الشعرية الأخرى في مدح المصطفى – صلى الله عليه وسلم –و تقرأ في كل ليالي المولد من بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء " ، و في ليلة 12 من ربيع الأول أي ليلة ذكرى المولد النبوي وفي صبيحتها حسب ما يسمح به الوقت" يقرأون هذه القصائد في المسجد من بعد صلاة العشاء إلى الصباح، و يستعرضون فيها السيرة النبوية فعندما يأتي منتصف نهار الغد (يوم المولد) يجتمع الحاضرون و المصلون على تناول "وليمة " خاصة بهذه المناسبة، وتختم بقراءة الفاتحة و الدعاء للأمة الإسلامية بالخير من طرف الكبار أهل الصلاح و خاصة شيخ الزاوية.

أما إحياء ليلة القدر بالنسبة للطلبة فيتم فيها تقسيم أجزاء القرآن للحفظ و صلاة التراويح بالناس حسب طاقة كل طالب، أما "المقدّمون" فإحياؤهم " لليلة المولد النبوي " و غيرها من الأعياد الدينية يكون بإقامة الضيوف بما يلزمهم من طعام و مأوى و القيام بالواجب و ذلك بأمر المساعدين لقضاء حاجات الزاوية. كذلك تحضير برنامج الاحتفال على حسب ما أمر به الشيخ، و الأسلوب المعتاد المحافظ للشريعة و الطريقة (كما صرح لنا به المقدّم آل سيدي الشيخ الجيلالي).

أما الأعياد الدينية الأخرى (عيد الفطر و الأضحى)، فهم كبقية المسلمين لديهم صلاة العيد و عند انتهائها مباشرة لاحظنا تصافح المصلين، و تسامحهم مع بعضهم البعض، و كل يهنئ الآخر بتبادل الزيارات، ويأتي للصلاة بالزاوية كثير من القبائل المجاورة لها و حتى البعيدة عنها، و لا زالوا يتمسّكون بهذه العادات إلى اليوم حتى أن المرأة تشارك في إحياء المناسبات و الأعياد الدينية و ذلك بتحضير مختلف الأكلات المحلية وكذا الحلويات و يمدحن النبي – صلى الله عليه و سلم – باجتماعهن في إحدى منازل الزاوية أو بيوت الجيران ،إلا أن هذا التقليد وهذه العادة الأخيرة لاحظنا أنها بدأت تقل وتتجه نحو الاندثار في مجتمع الدراسة وتكون هذه المناسبات الدينية فرصة لإخراج الصدقة أو " المعروف "كما هو مألوف في مجتمع الدراسة، من طعام و ذبح للغنم، و توزيعه على الفقراء و المساكين في سبيل الله و حتى أنهم يدعون لذلك في مأدبة جماعية.

ب – المناسبات الخاصة بالزاوية الشيخية (الولائم "المعاريف"، الوعدات، الصدقات) :

كما تحتفل الزاوية الشيخية بالمناسبات الدينية فهي أيضا لها مناسبات خاصة بها، وكل مناسبة تكون مقرونة بموسم خاص بها. فمناسبة " **اللمّة** " أو " **اللاما** "كما يسميها العامة، هي عبارة عن جمع الصدقات من قبل من أنذروا على أنفسهم و المشاركين و المحسنين في المعروف، و ترجع هذه اللمّة تاريخيا إلى الصحابة رضي

الله عنهم، في إحدى المعارك بقيادة السيد " سعد بن أبي وقاص " حيث نذروا " باللمّة " عند انتصارهم على المشركين، و قد تواترت عن التابعين وتابع التابعين إلى أن وصلت إلى شيوخ الطريقة ومن بينها الطريقة الشيخية التي اقتدى بها الشيخ " سيدي ابن الدين " حفيد " سيدي الشيخ " و منه إلى الشيخ " سيدي الحاج أحمد بن بوحفص " مؤسس الزاوية، الذي حافظ – رحمه الله – على هذه العادة الفاضلة إلى يومنا هذا، و تقام ثلاث مرات في السنة: الأولى: دخول الشتاء الثانية: في منتصفه، الثالثة: في خروجه (نهايته) . و كل هذه المناسبات تحي بتلاوة القرآن الكريم و الذكر و القصائد النبوية المختلفة. أما المعروف فلا يحدد بزمن معين إلا بعض المعاريف فإنها تحدد على حسب موسمها السنوي مثل " معروف ذكرى وفاة سيدي الشيخ"و "سيدي الحاج أحمد بن بوحفص " شيخ الزاوية. و يتم ذلك باجتماع أصحاب الطريقة و الحضور للوليمةوفيها ذكر الله وهو " يا لطيف " على حسب تحمل كل مريد يأتي بها في سبحته – الصلاة على النّبي – صلى الله عليه و سلم– وبها تختم الجلسة و هي طريقة سيدي الشيخ بوعمامة، و تكون أحيانا بقراءة الياقوتة (حسب ما صرح به أحد المريدين) و ذكر مناقب الشيخ أي " الجد ". و من هذه المعاريف:

– معروف سيدي الحاج أحمد بن بوحفص في ذكرى وفاته (مرة في السنة في شهر نوفمبر أو شهر آخر حسب ما تسمح به الظروف وفصول السّنة) .

– معروف سيدي الشيخ (يخص جميع الأعراش)، الشعانبة هم الذين يدفعون تبرعاتهم له، و تحضره جميع الأعراش و القبائل، فواحد يقام في دخول الخريف يخص الغنم، و الذي يخص الجمال يقام في فصل الشتاء ويذبح فيه جمل أو جملين. – أما ما يسمى " **بالفقرة** " فهي تخص جماعة معينة من أهل المدينة الحاملين لورد الطريقة الشيخية، يأتون للمسجد الذي يقرب مقام سيدي الشيخ ،يقرأون أذكار الطريقة الشيخية وبعض الأذكار الأخرى، و يأتون بها في اليوم الثالث من كل عيد أضحى و فطر. – و هناك معاريف أخرى تقام في المنطقة مثل : معروف " سيدي عبد القادر الجيلاني "، " سيدي مولاي سليمان "، " ثامر و طريف "، " أولاد سيدي الزيغم (المرابطون) " ، معروف " سيدي الحاج الدين " أحد الأحفاد لسيدي الشيخ، و كلها تقام مرة في السنة.

كما أن هذه "المعاريف كما يسمّونها" عبارة عن صدقات تجري بين الحين و الآخر على مدار السنة، وفي أوقات محددةو معروفة و محسوبة بدقة وفق حسابات قديمة متعارف عليها أبا عن جد، و تجرى في أماكن عامة بحضور جمع غفير من الناس، فيتوافد على الزاوية المريدون و الأتباع لإحياء هذه المناسبات من كل مكان، حتى من خارج المدينة و يعلن عن هذه الصدقات في المساجد و الأحياء عبر المنطقة، و تقرأ الفاتحة في آخر الصدقة بالتوجه بالدعاء إلى الله تعالى لصرف البلاء و تأمين العيش للجميع و هذا يتجدد في كل سنة ويلتقي الأطفال مع الكبار و يتم ذلك التواصل، و تزداد الرابطة بين أفراد المجتمع المحلي حتى يبقى متماسكا على الدوام، و كذا التقاء المريدين بالشيخ و المقدّمين، و تكون بذلك مناسبة لإحياء العلاقات الاجتماعية،والتي تعمل الزاوية الشيخية على الحفاظ عليها قدر الإمكان، حتى أن الوافدين في هذه المناسبة لاحظناهم بأعداد كبيرة، و أغلبية المريدين يحضرون لهذه المناسبة بكل ما لديهم (من أموال و تبرعات معتبرة).

والملاحظ عند إحياء " المناسبات السنوية "، الولائم، أو كما تسمى " بالمعاريف " التقاء مختلف شرائح المجتمع في مكان واحد ليخلق بذلك نوعا من المساواة بين كل الفئات الاجتماعية الوافدة للزاوية. والذين يأتون للزاوية يزورون كذلك القبّة التي دفن بها الشيخ " سيدي الحاج أحمد بن بوحفص "، ويقرأون القرآن عن أرواح الموتى و تتم الزيارة بطرق مختلفة باختلاف الفئات الاجتماعية، و كذا مستوياتهم العلمية والثقافية المختلفة :

– **هناك فئة أولى**: تقوم بإحياء حفلات دينية " مثل الطلبة داخل الزاوية " بتلاوة القرآن، والذكر،والمدائح النبوية، و كذا بتقديم مدائح تذكر فيها مناقب شيخ الطريقة الشيخية " الياقوتة مثلا " .

– **فئة ثانية**: تقوم بإحياء المناسبات بالزاوية – كما ذكرنا – بذبح الغنم أو الماعز أو نحر الإبل حسب القدرة الشرائية للزوار، و كذا تحضير الكسكس، و زيارة الزاوية.

ج – الاحتفالات الشعبية (الأعراس الجماعية ،الختان الجماعي ،ختم القرآن الكريم ،نجاح البكالوريا، تفوقات مختلفة...) :

هناك عادات و تقاليد تختلف و تتنوع حسب كل قبيلة و بيئتها الاجتماعية، فأبناء الزاوية لا يزالون يخضعون للعرف " فالزواج عند أولاد سيدي الشيخ هو زواج أبناء العمومة " و القصد من ذلك أن يزداد النسل و تكبر العائلة، و أهم من هذا المحافظة على النسب الذي يؤول إلى الصحابي الجليل سيدنا " أبي بكر الصديق " رضي الله عنه. أما طريقة الزواج فتكون بإقامة عرس جماعي – في بعض الأحيان – لمجموعة من الشباب في الزاوية، و حتى خارجها فإن هناك جمعيات تقوم بهذا الدور و على رأسها جمعية المنار الثقافية الاجتماعية وجمعية آفاق وجمعية القمقومة وجمعية نور الفرقان التابعة لزاوية سيدي الحاج أحمد بن بوحفص(مؤسس الزاوية)...، كما يوجد و بكثرة العرس الفردي " لشاب واحد " و يشهده جمع غفير من الناس،ويجرى في الأماكن العامة المتسعة لذلك، و أمام ملأ من الناس و يتم تتويج العريس بطريقة تقليدية وسط جمع من المشايخ و الحاضرين، و يلبسونه لباسا تقليديا بتأني: " القميص و البرنوس الأبيض اللون، والسيف أو الخنجر، إضافة إلى التاج ..." يتخلل ذلك مديح البردة و زغاريد النسوة المنبعثة من بعيد في جو مفعم بالفرح و السرور، و هذا بعد تناول وجبة العشاء، و أحيانا يجرى ذلك نهارا بعد وجبة الغداء، و الأكلة المشهورة التي تقام الوليمة عليها هي " الكسكسي " تكون متبوعة بالفول السوداني مع كؤوس الشاي الذي يبقى هو الآخر مشروبا متداولا و محبوبا و يعتبر رمز الضيافة بالمنطقة.

وفي هذا السياق يحلل" **دوركايم** "مثل هذه المظاهر تحليلا سوسيولوجيا في حديثه عن المعنى الأيديولوجي للأفراح و الاحتفالات قائلا ما يلي: " في بعض فترات السنة يشتعل غليان الذي يقلب الحياة اليومية، هذه الأوساط التي يحدث فيها الغليان هي عبارة عن أفراح،و الديناميكية الجماعية التي تتركز في هذه الأوساط تخترع و تنتج هذه الفكرة الاختراقية التي تتضمن المقدس "... يظهر هذا من خلال " التظاهرات الدينية السلبية أو الإيجابية، حيث يتشبع فيها الإنسان بالشعور الجماعي، و حرية الأفراد فالفرح هو السبيل الذي بفضله يحدث المجتمع الديني هذا المقدس "[9].

خاتمة :

يمكن القول إنّ التصوف تجربة دينية متأصلة في الإنسان بحكم طبيعته و حمله الأمانة منذ بدء الخليقة فقد قال الله تعالى :﴿ و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون ﴾. و جاء في كثير من كتب التفسير ليعبدون بمعنى "ليعرفون" و بذلك كانت المعرفة و هي غاية التصوف هدفا للإنسان بفطرته و إن اختلف أفق المعرفة ونوعها باختلاف مستويات الأفراد. و من ثم فسعي الإنسان نحو المعرفة إنما هو تطلع للحقيقة التي خلق من أجلها. والمعرفة ليست علما يدرك بالدراسة و التعلم و الاطلاع فحسب و إنما يتم الوصول إليها بالذوق عن طريق خوض التجربة الصوفية ذاتيا، و هي تجربة أساسها الأخلاق. فكلما تخلى المتصوف عن صفاته المذمومة وفرّغ قلبه من الاهتمام بالأكوان و تحلّى بالصفات المحمودة و امتلأ قلبه بالأنوار التي يقذفها الله في قلبه، كلما تحققت له المعرفة التي يطلق عليها الصوفية "التجلّي".

و قد اتضح من الدراسة دور التصوف الفعال في التأثير على المريد بتغيير اهتمامه و من ثم تغيير قيمه وبذلك يجمع التصوف في المجتمع الجزائري بين "الدين الحركي الديناميكي و الدين السّكوني الإستاتيكي".

والاختلاف في الطرق إنما هو في المقام الأول اختلاف في المناهج و السبل مع الاتفاق في الهدف.

وأسفرت الدراسة عن أن اختلاف المناهج ناتج عن اختلاف المشايخ و ذاتية التجربة الصوفية بما يتفقوشخصية المريد وحاله و طبيعته و اتجاهاته فالتصوف كوجود و حقيقة وجدانية يسمو عن أن يكون صدى للبيئة التي تعيش فيها فيكون كنمط و شكل و تنظيم حسب كل مجتمع و طبيعته.

الهوامش:

(1) أحمد أبو زيد،**البناء الاجتماعي مدخل لدراسة المجتمع: الأنساق**،ج2، المكتب الجامعي الحديث ، مصر،1987، ص 535.

(2) منال عبد المنعم جاد الله،**التصوف في مصر والمغرب**، منشأة المعارف،الاسكندرية،مصر،1997، ص 247.

(3) محمد الجوهري، **علم الفلكلور، دراسة المعتقدات الشعبية**، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1980 ، ص 99 .

(4) فاروق أحمد مصطفى، **البناء الاجتماعي للطريقة الشاذلية في مصر: دراسة في الانثروبولوجيا الاجتماعية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،الاسكندرية ، مصر،1980، ص 166 .

(5) سورة يونس، الآية 62 .

(6) منال عبد المنعم جاد الله، المرجع السابق نفسه، ص 251 .

(7) فاروق أحمد مصطفى، **دراسات في المجتمع المصري الموالد: دراسة للعادات و التقاليد الشعبية في مصر**، ص 445 .

(8) فاروق أحمد مصطفى، **دراسات في المجتمع المصري الموالد: دراسة للعادات و التقاليد الشعبية في مصر**، المرجع نفسه، ص 46.

(9) JEAN DUVIGNAUD،**le don du rien**،ed/ stock، monde overt، Paris، 1977، p 305.